الباب الثانى

بر الوالدين وصلة الرحم

الفصل الأول
بـر الـوالـديـن

تمهيد :

كثيرًا ما تتكرر توصية الولد بالوالدين فى القرآن الكريم ، وفى وصايا رسول الله ﷺ ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا فى بعض الحالات الخاصة ، وهى حالة الوَأْدِ ، ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه ، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشىء لضمان امتداد الحياة كما يريدها الله ، وغالبًا ما يتجه الأولاد بكينونتهم كلها ، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتمامهم إلى الجيل الذى يخلفهم لا الجيل الذى خلفهم ، مدفوعين فى تيار الحياة إلى الأمام غافلين عن التلفت إلى الوراء .

فتأتى التوجيهات الربانية من الرحمٰن الذى لا يترك والدًا ولا مولودًا والذى لا ينسى ذرية ولا نسلاً ، والذى يُعلم عباده الرحمة بعضهم ببعض ، ولو كانوا أولادا أو وَالِدِين .

إن الوَالِدَيْن ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغالٍ ، فى غير تأفف ولا شكوى ، بل فى غير انتباه ولا شعور بما يبذلان ، بل فى نشاط وفرح وسرور ، كأنما هما اللذان يأخذان . أما الولد فهو فى حاجة بصفة خاصة إلى الوصية المكررة للبر بالوالدين ، وليلتفت إلى الجيل المُضَحِّى المدبِر المُوَلِّى ، الذاهب فى أدبار الحياة بعد ما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ، وما يملك الولد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه ولو وقف عمره عليهما .

أولاً : مكانة بر الوالدين فى الإسلام :

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١).

قال الإمام النيسابورى فى التفسير :

وإنما جعل الإحسان إلى الوالدين تاليًا لعبادة الله لوجوه :

منها : أنهما سبب وجود الولد ، كما أنهما سبب التربية ، فلا إنعام بعد إنعام الله أعظم من إنعام الوالدين .

ومنها : أن إنعامهما يشبه إنعام الله ، من حيث أنهما لا يطلبان بذلك ثناءً ولا ثوابًا .

ومنها : أنه تعالى لا يمل من إنعامه على العبد وإنْ أَتَى بأعظم الجرائم ، فكذا الوالدان لا يقطعان عنه مواد كرمهما وإنْ كان غيرَ بارٍّ بهما .

ومنها : أنه لاكمالَ للولد إلا ويطلبه الوالد لأجله ويزيده عليه . كما أنه تعالى لا خير يمكن للعبد إلا وهو يريده له .

ومن غاية شفقة الوالدين : أنهما لا يحسدان ولدهما إذا كان خيرًا منهما ، بخلاف غيرهما ، فإنه لا يرضى أن يكون غيره خيرًا منه . وتعظيم الوالدين أمر معتبر فى كل الشرائع ومركوز فى كل العقول(٢).

وقال تعالى :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (٣).

جاء فى تفسير المنار : « أى وأحسنوا بالوالدين إحسانًا تامًّا لا تُقصروا فى شىء منه .

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية ٨٣ .

(٢) تفسير النيسابورى بهامش تفسير القرطبى ـ ج ١ .

(٣) سورة النساء ـ من الآية ٣٦ .

والإحسان فى المعاملة يعرفه كل واحدٍ ، ويختلف باختلاف أحوال الناس وطبقاتهم»[1].

وقال الله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2].

قال الإمام القرطبى : « الإحسان إلى الوالدين : برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطنة عليهما »[3].

وجاء فى تفسير المنار : « أى : والثانى مما أتلوه عليكم أن مما أوصاكم به ربكم أن تحسنوا بالوالدين إحسانا تامًّا كاملاً ولا تَدَّخرُوا وسعًا ، ولا تألوا فيه جهدًا ، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإنْ صغرت ، فكيف بالعقوق المقابل لغاية الإحسان وهو من أكبر الكبائر » .

ثم قال : « ولو لم يرد فى التنزيل إلا قوله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولو غير مكرر لكَفَى للدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة ، إذ التعبير بالمصدر يفيد التأكيد والمبالغة ، فكيف وقد قرنه بعبادته وجعله ثانيًا فى الوصايا»[4].

وقال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [5]. يوجهنا القرآن الكريم إلى شُكر الله المُنعم الأول ، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ، ويرتب الواجبات ، فيجىء شكر الله أولاً ، ويتلوه شكر الوالدين : « أن اشكرْ لى ولوالديك » . ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة : « إلىَّ المصير » ، حيث ينفع رصيد الشكر المُدَّخَر .

---

(١) تفسير المنار ـ ج ٥ ص ٨٣ .

(٢) سورة الأنعام ـ من الآية ١٥١ .

(٣) تفسير القرطبى ـ ج ٧ ص ١٣٢ .

(٤) تفسير المنار ـ ج ٨ .

(٥) سورة لقمان ـ من الآية ١٤ .

قال القاضى عياض : « وأجمعوا على أن حق الأب والأم آكَدُ حُرْمَةً فى البر ممن سواهما »[1].

وقال الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : « ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاثٍ لا تقبل واحدة بغير قرينتها :

إحداها : قول الله تعالى ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه .

والثانية : قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فمن صلى ولم يُزَكِّ لم يُقبل منه .

والثالثة : قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه . ولذا قال رسول الله ﷺ : رضا الله فى رضا الوالدين ، وسخط الله فى سخط الوالدين[2]. رواه الترمذى من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما .

كما روى البخارى فى الأدب المفرد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسبًا إلا فتح الله له بابين ـ يعنى الجنة ـ وإن كان واحدًا فواحدًا ، وإنْ غضب أحدهما لم يرضَ الله عنه حتى يرضى عنه ، قيل : وإنْ ظلماه ؟ قال : وإن ظلماه » .

وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : سالتُ رسول الله ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فقال : « الصلاة لوقتها » قلت ثم أى ؟ . قال : « بِرُّ الوالدين » قلت : ثم أى ؟ . قال : الجهاد فى سبيل الله » .

وقال ﷺ : « ثلاث لا ينفع معهم عمل : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار يوم الزحف » .

---

(١) شرح النووى على مسلم ـ ج ١٦ .

(٢) الزواجر لابن حجر الهيثمى ـ ج ٢ .

صور من بر الرسل والأنبياء بوالديهم :

يحكى لنا القرآن الكريم صورًا من بر رسله وأنبيائه بوالديهم ، ومن ذلك :

بر يحيى بوالديه :

فذكر القرآن الكريم بر يحيى عليه السلام بوالديه ، ومحبتهما ، والشفقة عليهما ، وطاعته لهما أمرًا ونهيًا ، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً .

فقال تعالى :

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا * وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا * وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴾(١).

بر عيسى عليه السلام بأمه :

قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا * وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾(٢).

مثالية إسماعيل عليه السلام فى طاعة أبيه :

قال تعالى :

﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ

---

(١) سورة مريم ـ الآيات من ١٢ ـ ١٤ .

(٢) سورة مريم ـ الآيات من ٣٠ ـ ٣٢ .

ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١).

وقول إبراهيم لابنه إسماعيل عليهما السلام : ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ لم يكن تخييرًا له ، إنما أحب الوالد أن يأتى بابنه رغبة وطاعة فيكون له الأجر والثواب . يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره: « الحكمة فى مشاورة الابن أن يطلع ابنه على هذه الواقعة، فيظهر له صبره فى طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية، ويجعل للابن الثواب العظيم فى الآخرة ، والثَّنَاء الحَسَن فى الدنيا . فأجاب الابن فورًا : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال الابن : يا أبتِ ، اشدد رباطى لكيلا اضطرب ، والفف ثيابك حتى لا ينضح عليهما من دمى شىء فينقص أجرى ، وتراه أمى فتحزن .

واستسلم الأب لأمرِ الله ، واستسلم الابن لأمر الله ، ومن أسلم نفسه لله عاملا فى سبيله ، قائمًا بما يرضيه ، تكفل الله به حماية ونصرًا ، وتكفل الله به عناية ورعاية فى الدنيا والآخرة .

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(٢).

فى ألواح موسى : أكْرِمْ أباكَ وأمَّك :

وكان فى الألواح التى أعطاها الله لموسى ، والتى يقول الله سبحانه وتعالى عنها :

---

(١) سورة الصافات ـ الآيات من ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٢) سورة يونس ـ الآيات من ٦٢ ـ ٦٤ .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾(١).

كان فيها الكلمات العشر :

١ـ أُعبد الله وحده لا شريك له .

٢ ـ لا تحلف بالله كذبًا .

٣ حافظْ على السبت (ومعناه تفرغ يومًا من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل يوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت) .

٤ ـ أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض .

٥ ـ الذى يعطيك الله ربك .

٦ ـ لا تقتل .

٧ ـ لا تزن .

٨ ـ لا تسرق .

٩ ـ لا تشهد على صاحبك شهادة زور .

١٠ ـ لا تمد عينيك إلى بيت صاحبك ، ولا تشته امرأته ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئًا من الذى لصاحبك (ومعناه النهى عن الحسد) .

ومن طريف ما قيل :

« أربع لا ينبغى لشريف أن يأنف منها وإنْ كان أميرًا : قيامه من مجلسه لأبيه ،

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية ١٤٥ .

وخدمته للعالم يتعلم منه ، والسؤال عمَّا لا يعلم مما هو أعلم منه ، وخدمته الضيف بنفسه إكرامًا له »[1].

ثانيًا : تكريم الأم برها :

يبذل الوالدان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغالٍ ، والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر ، وتجود به فى انعطاف أشد وأعمق ، وأحنى وأرفق ؛ لذلك حرص الإسلام على تكريم الأم ، وجعل لها مكانة خاصة بالنسبة لأبنائها ليست لغيرها من البشر ، عدا الأنبياء والمرسلين .

قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ ﴾ : أى صارت بقدرة الله سبب وجوده . ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ : أى صارت بقدرة الله أيضًا سبب بقائه . فإذا كان فى فعلها ما يشبه صورة الوجود والبقاء وَجَبَ عليه لها ما يشبه العبادة من الخدمة ؛ فإن الخدمة لها صورة العبادة » .

وقال الإمام القرطبى فى تفسيره :

---

(١) ذكره أبو حيَّان التوحيدى .

(٢) سورة لقمان ـ الآية ١٤ .

(٣) سورة لقمان ـ الآية ١٥ .

فى هاتين الآيتين عدة أوامر ونهى :

أما الأوامر :

ففى قوله تعالى ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ أى : نحن وصينا الإنسان بوالديه، وأمرنا الناس بهذا ، وأمَرَ به لقمان ابنه .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ ، قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان ، والشكر للوالدين على نعمة التربية . . وقال سفيان بن عيينة : مَنْ صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى. ومَنْ دعا لوالديه فى أدبار الصلوات فقد شكرهما .

وقوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ والآية دليل على صلة الأبوين الكافِرَيْن بما أمكن من المال ، إن كانا فَقِيرَيْنِ ، و إلانةِ القول لهما ، ودعائهما إلى الإسلام برفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ يعنى : لا تُطِعْهُمَا فى الشِّرْك ، ولا تنهج نهجهما ، بل انهج نهج المؤمنين التائبين إلى الله تعالى .

وأما النهى :

ففى قوله تعالى :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الإمام القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة : نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأمه حمنة بنت أبى سفيان ، فيما روى الترمذى عنه ، وروى الطبرانى فى كتاب العَشَرة عن سعد بن أبى وقاص ، قال : كنتُ رجلاً بَرًّا بأمى ، مكرماً لها ، فلما

أسلمتُ وهى لا تزال مشركة متمسكة بوثنيتها قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ، لتدعن دينك هذا أو لا آكلُ ولا أشرب حتى أموت فَتُعَيَّرَ بذلك أبد الدهر ، فيقال : يا قاتلَ أُمِّهِ . ياسعد : أليس الله قد أمَرَ بالبر ؟ فقلت : لا تفعلى يا أمه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء،فمكثت يوماً وليلة لم تأكل ، وأصبحت قد جهدت ، فمكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ، وقد اشتد جهدها ، فلما رأيتُ ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفساً ما تركتُ دينى هذا لشىء ، فإنْ شئتِ فَكُلى ، وإنْ شئت لا تأكلى . فلما وجدت أمه ذلك الإيمان الصادق أيست منه ، فأكلت وشربت . فكان نزول هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١). وهكذا انتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ، واستبقى الإحسان والبر .

وسعد بن أبى وقاص هو سعد بن مالك بن وهب الزهرى القرشى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، كان من السابقين إلى الإسلام ، فأسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقال : كنتُ سادسَ مَن أسلم ، وأول مَنْ رَمَى بسهم فى سبيل الله . وشهد المشاهدَ كلها مع النبى ﷺ ، وكان مُجَابَ الدعوة ، فقد طلب من الرسول أن يدعو له بأن يكون مستجابَ الدعوة فدَعَا له الرسول وقال له : « يا سعد أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجابَ الدعوة » ومات سعد سنة ٥٥ هـ ، ودُفن بالبقيع .

إن حق الوالدين عظيم ، ولكن حق الله أعظم ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وإذا كانت آيات الله البينات أوصت بالأبوين إحساناً ، واهتمت بالأم أكثر لضعفها وكثرة مالاقت فى الحمل والولادة والرضاع والتربية ، فإن رسول الله ﷺ يوضح الموقف أكثر . فعن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : « قلتُ : يا رسول الله ، مَنْ

---

(١) سورة لقمان ـ الآية ١٥ .

أبَرُّ ؟. قال : « أمك » قلت : مَنْ أَبَرُّ ؟ قال : « أمك » . قلت من أبر ؟ قال : «أمك» . فقلت : من أبر ؟ قال « أباك ، ثم الأقرب فالأقرب » (١).

وقال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم : وفيه ـ أى فى الحديث ـ الحث على بر الأقارب ، وأن الأم أحقهم بذلك . قال العلماء : وسبب تقديم الأم كَثْرَةُ تَعَبِهَا ، وشفقتها ، وخدمتها ، ومعاناة المشاق فى حمله ، ثم وضعه ، ثم تربيته وخدمته وتمريضه (٢).

وفى الحديث المطول الذى روته كتب الصحاح عن علىٍّ رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، عن علامات الساعة ، قال : « . . . والعلامة الرابعة : « أن يطيع الرجل زوجته ويعق أمه » . . الحديث . والمقصود هنا : أن يطيع الرجل زوجته فيما تدبره لأمه من مكر ومن مكائد ، فيعق أمه التى حملته صابرة على المشقة ، ووضعته صابرة على المشقة ، وأرضعته وربته وحنت عليه ، وآثرته على نفسها . . . ورسول الله ﷺ يقول : «الجنة تحت أقدام الأمهات » (٣).

ومما يُروى أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ ليستشيره فى الجهاد ، فقال له الرسول : « أَلَكَ وَالِدَةٌ » ؟ قال : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : « الْزَمْهَا فإنَّ الجنة عند رجليها » ولا عَجَبَ ، فقد رُوِىَ أن واحدًا من الصحابة كان يُقَبِّلُ قَدَمَ أُمه كل صباح ومساء ، فلما سُئِلَ عن ذلك قال : إننى بذلك أقبل أعتاب الجنة . وفى رواية « كنت أتمرغ فى رياض الجنة » .

ومن هنا نرى فضل الأم ومالها من حقوق على أولادها ، فبرضائها تتيسر الأمور ، ولدعائها تشرق الآفاق ، ومن غضبها يهتز عرش الرحمٰن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، مَنْ أَحَقُّ الناس بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ ؟ قال : « أُمك ، ثم أُمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك فأدناك »(٤).

---

(١) رواه الترمذى ، وأبو بكر ، والحاكم ـ انظر : الأدب المفرد .

(٢) شرح النووى على مسلم ـ ج ١٦ .

(٣) رواه ابن ماجه ، والنسائى .

(٤) رواه الشيخان ـ التاج : ج ٥ .

قال الحارث المحاسبى : « لا خلاف بين العلماء فى أن للأم ثلاثة أرباع البر ، وللأب الربع ، على مقتضى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، والله اعلم » .

وحَدَّثَ الصحابى معاوية بن جاهمة السلمى ، قال : أتيتُ رسولَ الله ، ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، إنى كنتُ أردتُ الجهاد معكَ أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال « ويحك ! أحَيَّةٌ أُمك ؟ » قلت : نعم ، قال « ارجع فبرها » . ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله ، إنى كنتُ أردتُ الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة. قال : « ويحك ! أحية أمك ؟ » قلت : نعم يا رسول الله . قال : « فارجع إليها فبرها » . ثم أتيته من أمامه فأعدت ما قلت : فقال : « ويحك ! الزمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الجنة » . وفى رواية : « فالزمها فإن الجنة تحت أقدام الأمهات »(١).

وعن أبى مرة مولى عقيل ، أن أبا هريرة كان يستخلفه مروان ، فكان هو فى بيت، وكانت أمه فى بيت آخر بذى الحُلَيْفَة ، فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها فقال : «السلام عليكِ يا أماه ورحمة الله وبركاته ، فتقول : وعليكَ يا بنى ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحمكِ الله كما رَبَّيْتِنِى صغيرًا . فتقول : رحمك الله كما بَرَرْتَنِى كَبِيرةً . ثم إذا أراد أن يخرج صنع مثل ذلك »(٢).

وقال ابن عباس رضى الله عنه : « إنى لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة(٣).

وسأل ابن عمر رضى الله عنهما رجلاً فقال : أتَفْرَقُ مِنَ النارِ (أى : تخافها) وتحب أن تدخل الجنة ؟ قال : إى والله . فقال : أَحَيٌّ والداك ؟ قال : عندى أمى . قال «فوالله لو أَلَنْتَ لها الكلام وأطْعَمْتَهَا الطعامَ لتدخلنَّ الجنة مَا اجْتَنَبْتَ الكبائر »(٤).

وأتى رجل النبى ﷺ فقال : « يا رسول الله ، إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه .

---

(١) رواه ابن ماجه ، والنسائى ، والحاكم ـ انظر : الترغيب والترهيب ج ٤ .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

(٣) رواه البيهقى .

(٤) رواه الطبرى .

قال الرسول : « هل بقى من والديك أحد ؟ » قال : أمى . قال عليه الصلاة والسلام : «قَابِلِ الله فى بِرِّهَا ، فإذا فعلت فأنت حاجٌّ ومُعْتَمِرٌ ومُجَاهِد »[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام : « قابل الله فى بِرِّهَا » تعبير رائع يكشف عمَّا فى بِرِّ الأم من رضوان الله الذى هو حقيقة النعمة .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[2]. وصية لجنس الإنسان كله ، وهى وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد ، فصفة الوالدية تقتضى هذا الإحسان بذاتها ، وهى وصية صادرة من خالقِ الإنسان سبحانه وتعالى .

وكثيرًا ما تتكرر الوصية بالإحسان إلى الوالدين ، ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرًا ، ولمناسبة حالات معينة ، ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير ، وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التى قد تصل إلى حد الموت بدون تردد ، وبدون انتظار عوض ، وبدون مَنٍّ ولا رغبة حتى فى الشكران . أما الجيل الناشىء فقلما يلتفت إلى الخَلف ، قلما يلتفت إلى الجيل المضحى الواهب الفانى ؛ لأنه بدوره مندفع إلى الأمام يطلب جيلا ناشئاً منه يضحى له بدوره ويرعاه . . . وهكذا تمضى الحياة .

ويصور القرآن الكريم هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التى تتقدم بها الأمومة ، والتى لا يجزيها أبدًا إحسانٌ من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله فى الوالدين بقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ تُجَسِّدُ ألفاظ هذه الآية الكريمة العناء والجهد والضنى والكلال الذى تتحمله الأم . إنها صورة الحمل ، وبخاصة فى أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطَلْقِه وآلامه ، وقد كشف لنا علم الأجنة أخيرًا عن جسامة تضحية الأم ونُبلها فى عملية

---

(١) رواه أبو يعلى ، والطبرانى فى الصغير والأوسط ، وإسناده جيد .

(٢) سورة الأحقاف ـ من الآية ١٥ .

الحمل ، فإن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم ، وهى مزودة بخاصية آكِلَةٍ تمزق جدار الرحم الذى تلتصق به وتأكله ، فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائمًا فى بِرْكَةٍ من دم الأم الغنى بكل ما فى جسمها من خُلاصات وتمتصه لتحيا به ، وتنمو وهى دائمة الأكلان لجدار الرحم ، دائمة الامتصاص لمادة الحياة ، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دمًا نقيًّا غنيًّا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول . وفى فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم ، فتفتقر إلى الجير ، ذلك أنها تعطى محلولَ عظامها فى الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ، وهذا كله قليل من كثير .

ثم الوضع . وهو عملية شاقة ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف فى وجه الفطرة ، ولا تُنْسِى الأم حلاوة الثمرة ، ثمرة التلبية للفطرة ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش وتمتد ، فى حين أنها هى تذوى وتموت .

ثم الرضاعة والرعاية ، حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية .

وهى من هذا وذاك فرحة سعيدة ، رحيمة ودودة ، لا تمل أبدًا ، ولا تكره تعب هذا الوليد ، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو ، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد .

كيف يوفى الإنسان جزاء هذه التضحية ؟ إنه مهما يفعل ـ وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ـ فلن يوفى للأم حقها عليه . وصدق رسول الله ﷺ ، وقد جاءه رجل كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأل رسول الله ﷺ : هل أديت حقها ؟ فأجابه « لا ، ولا بزفرة واحدة »[1].

تلك لمحة سريعة من صور التضحية المثالية النبيلة للأم .

صور من حنان الأمومة :

قَدمَ على النبى ﷺ بالمدينة سَبْىٌ ، بينهم امرأة تحمل صبياً وقد أخذته فألصقته

---

(١) رواه الحافظ وأبو بكر البزار عن بُرَيْدَة ، عن أبيه .

ببطنها وأرضعته . فقال النبى ﷺ لأصحابه : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً ولدَهَا فى النار ؟ قالوا : لا . . . فقال الرسول : الله أرحم بعباده مِنْ هَذِهِ بولدها » .

وعن عبد الله بن عمر قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض غزواته فمر بقوم وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعها ابنٌ لها ، فإذا ارتفع وهج التنور تَنَحَّتْ به ، فأتت النبى ﷺ فقالت : أنت رسول الله ؟ قال : نعم . قالت : بأبى أنت وأمى ، أليس الله بأرحم بعبادِه من الأم بولدها ؟ قال : بلى . قالت : فإن الأم لا تُلْقِى ولدَها فى النار . فأكب رسول الله ﷺ يبكى ، ثم رفع رأسه وقال : « إنَ الله لا يُعَذِّبُ مِنْ عباده إلاَّ المارِدَ المتمرد، الذى يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا إلٰه إلا الله » .

وفى الترغيب والترهيب ، عن عبدالله بن أبى أَوْفَى رضى الله عنه ، قال : إنه كان فى زمن النبى ﷺ شاب يسمى عَلْقَمَة ، وكان كثير الاجتهاد فى طاعة الله ، فى الصلاة ، والصوم ، والصدقة . فمرض واشتد مرضه ، فأرسلت امرأته إلى رسول الله ﷺ : أن زوجى علقمة فى النزع ، فأردت أنْ أُعْلِمَكَ يا رسول الله بِحَالِهِ . فأرسل النبى ﷺ عمارًا وصُهَيْبًا وبِلاَلاً وقال : امضوا إليه ولَقِّنُوهُ الشهادة ، فمضوا إليه ، ودخلوا عليه فوجدوه فى النزع ، فجعلوا يلقنونه « لا إلٰه إلا الله » ولسانه لا ينطق بها ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه أنه لا ينطق لسانه بالشهادة . فقال النبى ﷺ : هل من أبويه أحد حَىّ ؟ فقيل : يا رسول الله ، له أم كبيرة السن . فأرسل إليها رسول الله ﷺ ، وقال للرسول : قُلْ لها إنْ قدرت على المسير إلى رسول الله ﷺ وإلا فَقَرِّى فى المنزل حتى يأتيك . قال : فجاء إليها الرسولُ ، فأخبرها بقول رسول الله ﷺ ، فقالت : نفسى لنفسه فداء ، أنا أحقُّ بإتيانه . فتوكأت وقامت على عصًا وأَتَتْ رسول الله ﷺ ، فسلمتْ ، فرد عليها السلام وقال لها : يا أم علقمة أُصْدُقِينى ، وإنْ كَذَبْت جاء الوحى من الله تعالى : كيف كان حال ولدك علقمة ؟ قالت : يا رسول الله ، كثير الصلاة ، كثير الصيام ، كثير الصدقة . قال رسول الله ﷺ : فما حَالُكِ ؟ قالت : يا رسول الله أنا عليه ساخطة. قال : ولِمَ ؟ قالت : ربيتُه صغيرًا فَضَيَّعنِى كبيرًا ، كنت أجوع وأُطْعِمُهُ وأَعْرَى وأكسوه ، فلما كبر أهملنى . كان يُطعم أولاده ويُـجَـوِّعُنى ، ويبتسم فى وجه زوجته ويتجهم فى وجهى ، ويؤثر علىَّ زوجته ويعصينى ، وفى ساعة من ساعات الغيظ غَضِبْتُ عليه . فقال رسول الله ﷺ : إنَّ سخط أُمِّ علقمة حجب لسان علقمة عن

الشهادة . ثم قال : يا بلالُ ، انطلقْ واجمعْ حطبًا كثيرًا . قالت : يا رسول الله ، وما تصنع ؟ قال : أحرقه بالنار بين يَدَيْكِ . قالت : يا رسول الله ، ولدى ! ولا يحتمل قلبى أن تحرقه بالنار بين يدىَّ . قال : يا أم علقمة عذابُ الله أشد وأبقى ، فإنْ سَرَّكِ أن يغفر الله له فَارْضَىْ عنه ، فَوَالذى نفسى بيده ، لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته ما دُمْتِ عليه ساخِطَة . فقالت : يا رسول الله ، أُشْهِدُ الله تعالى وملائكته ومَنْ حضرنى من المسلمين أَنِّى قد رضيت عن ولدى علقمة . فقال رسول الله ﷺ : انطلق يا بلال إليه فانظر هل يستطيع أن يقول : لا إله إلا الله أم لا ، فلعلَّ أم علقمة تكلمت بما ليس فى قلبها حياءً منى . فانطلق ، فسمع علقمة من داخل الدار يقول : لا إله إلا الله . فدخل بلال فقال : « يا هؤلاء ، إنَّ سخط أم علقمة حجب لسانه عن الشهادة ، وإن رضاها أطلق لسانه » . ثم مات علقمه من يومه ، فحضره رسول الله ﷺ وقال : الحمد لله الذى أنقذه من النار . وأمر بغسله وكفنه ، ثم صلى عليه ، وحضر دفنه ، ثم قام على شفير قبره وقال : « يا معشر المهاجرين والأنصار ، مَنْ فَضَّلَ زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا ، إلاَّ أن يتوب إلى الله عز وجل ويُحسن إليها ، ويطلب رضاها ، فَرِضَا الله فى رضاها ، وسخط الله فى سخطها»(١).

وفيما رواه ابن أبى شيبة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان يومًا بارزا للناس ، فأتاه جبريل فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال الرسول ﷺ ما المسئول عنها بأعْلَمَ من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها (أى علاماتٍ تُنذر بوقوعها) وذكر فى الحديث العلامات ، ثم قال : والعلامة الرابعة : « أن يطيع الرجل زوجته ويعق أمه » أى : يطيع زوجته فيما تدبره لأمه من مكرٍ ومن مكائد ، فيعق أمه التى حملته صابرة على المشقة ، ووضعته صابرة على المشقة ، وأرضعته وربته وحَنَّتْ عليه وآثرته على نفسها .

أبو اليزيد البسطامى ووفاؤه بعهد قطعه على نفسه لأمه :

ومن طريف ما يروى عن صور البر بالأم ، أنَّ أبا يزيد البسطامى أراد الذهاب إلى بغداد لطلب العلم ، فأعطته أمه أربعين دينارا ، هى ميراثه من أبيه ، وقالت له : ضَعْ

---

(١) رواهالطبرانى ، وأحمد ـ الترغيب والترهيب : ج ٤ .

يَدَكَ فى يدي وعاهِدْنِى على التزام الصدق فلا تكذب أبدًا . فعاهدها على ذلك ، وخرج فى قافلة يريد بغداد ، وفى أثناء الطريق هجم اللصوص على القافلة ونهبوا كل ما فيها ، ورأوا البسطامى رَثَّ الثياب ، فقالوا له : هل معك شىء ؟ فقال : معى أربعون دينارًا ، فسخروا منه وحسبوه أَبْلَهَ ، فتركوه ورجعوا إلى كهف كان به زعيمهم ، فقال لهم : هل أخذتم كل ما فى القافلة ؟ قالوا : نعم ، إلاَّ رجلا سألناه عَمَّا معه فقال : معى أربعون دينارًا فتركناه احتقارًا لشأنه ، ونظن أنَّ به خَبَلاً فى عقله . فقال : عَلَىَّ به . فلما وقف بين يديه قال له كبير اللصوص : هل معك شىء ؟ قال : نعم ، معى أربعون دينارًا . قال : أين هى ؟ فأَخْرَجَها وسَلَّمَها له . فقال له كبير اللصوص : أمجنون أنت يا رجل ؟ كيف تُرشد عن نقودك وتسلمها باختيارك ؟ . فقال له : لما أردتُ الخروج من بلدى عاهدت أمى على أن ألتزم الصدق ، فأنا لا أنقض عهد أمى وفاءً وبرًّا بها . فقال له كبير اللصوص : لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلى العظيم . أنت تخاف أن تخون عهد أمك ونحن لا نخاف أن نخون عهد الله ! . ثم أمر برد جميع ما أُخِذَ من القافلة . وقال : أنا تائب على يديك يا رجل : فقال له أعوانه : أنت كبيرنا فى قطع الطريق واليوم أنت كبيرنا فى التوبة ، فنشهد الله أننا تُبْنَا جميعًا إلى الله .

ثالثًا : بر الوالدين حق لا يهدره شرك :

قال الله تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1].

قال الإمام القرطبى : قَضَى : أَمَرَ ، وأَلْزَمَ ، وأَوْجَبَ . وقال ابن عباس رضى الله

(١) سورة الإسراء ـ الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

عنهما : ليس هذا قضاء حكم ، بل قضاء أمر [1]. ثم قال : لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مُسْلِمَيْنِ ، بل إنْ كانا كافرين يَبَرُّهُما ويُحسن إليهما ، فقال تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [2]

وقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [3].

أى عظمة تلك ؟ وأى جمال هذا ؟ بل أى كمالٍ ذاك الدين الذى يأمر بمصاحبة الوالدين بالمعروف ولو كانا كافرين : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [4]

أليس الشرك إهدارًا للتوحيد ؟

أليس الشرك ذنبًا لا يُغْفَر دون بقية الذنوب !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [5].

ومع ذلك يأتى الأمر الإلٰهى ، والأمر الكريم من الرب الحكيم :

﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ .

إن رابطة الوالدين بالوليد تأتى فى ترتيبها بعد رابطة العقيدة ، فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن إقناع ليغرياه بأن يشرك بالله فلا يُطِعْهُما ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . ولكن الاختلاف فى العقيدة والأمر بعدم طاعتهما فى الشرك بالله لا يُسْقِطُ حق الوالدين فى المعاملة الطيبة ، والصحبة الكريمة : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا

---

(١) القرطبى ـ ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) سورة الممتحنة ـ الآية ٨ .

(٣) سورة العنكبوت ـ الآية الثامنة .

(٤) سورة لقمان ـ من الآية ١٥ .

(٥) سورة النساء ـ من الآية ٤٨ ، ومن الآية ١١٦ .

﴿ فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ . إن الوالدين لَأَقْرَبُ الأقرباء ، وإن لهما فضلاً ، وإن لهما رَحِمًا ، وإن لهما واجبًا مفروضًا ، واجبَ الحب والكرامة والاحترام والكفالة . ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله . إن الصِّلَة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العُروة الوثقى . فإن كان الوالدان مُشْرِكَيْن فلهما الإحسان والرعاية لا الطاعة ولا الاتباع ، وإنْ هى إلاَّ الحياةُ الدنيا ثم يعود الجميع إلى اللهِ ﴿ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وقد روى أبو داود ، كما روى الشيخان ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، قالت :

(قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى راغبة (٢) فى عهدٍ قريب ، وهى راغمة (٣) مشركة ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ ، وقلت : إن أمى قَدِمَتْ وهى راغبة مشركة أفأصِلُهَا ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم . صِلِى أُمَّكِ » (٤).

قال ابن عيينة : فأنزل الله تعالى فيها :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٥).

١ ـ صورة للابن المؤمن مع الأب الكافر :

ويوضح لنا القرآن الكريم كيف تلَّطف إبراهيم عليه السلام مع عمه المشرك فى دعوته إلى الله ، فلما نهره عمه قابله بالرفق والوعد بالاستغفار . ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن العم يكون فى مرتبة الأب ، وأن العم يمكن أن يُطلق عليه الأب . يقول تعالى فى كتابه الكريم :

---

(١) من الآية الثامنة من سورة العنكبوت .

(٢) راغبة ، أى : طامعة فيما عندى ، تسألنى الإحسان إليها .

(٣) راغمة : كارهة للإسلام .

(٤) الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٥) سورة الممتحنة ـ الآية الثامنة .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾(١).

وهذا التحديد الشخصى لآزر إنما المقصود به العم ، ذلك أن الحق لو أراد أن يحدد الأبوة الحقيقية لإبراهيم عليه السلام لقال ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ﴾ فقط ، ولكن تحديد الاسم هو تنبيه إلى أن أباه آزرَ مقصود به العم . يا أبت : بهذا التَّلَطُّف فى الخطاب يتوجه إبراهيم إلى عمه يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه ، وعلَّمه إياه ، وهو يتحبب إليه فيخاطبه :

﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ يعبد مالا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا ، إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ فليس هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده ، ويسير فى الطريق إلى الهدى والإيمان . ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ يبين إبراهيم لعمه ، أن طريقه

---

(١) سورة مريم ـ الآيات من ٤١ ـ ٤٧ .

هو طريق الشيطان ، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمٰن ، فهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضى عليه أن يكون من أتباع الشيطان . وإبراهيم يحذر عمه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله وليًّا للشيطان وتابعًا له ، فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة ، وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة .

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك ، فإذا عم إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ بهذه القسوة قابلَ العم القولَ المُؤَدَّبَ المهذب للابن ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذى هذَّبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر . ولم يغضب إبراهيم الحليم ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع عمه : ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال إبراهيم لعمه : سلام عليك : فلا جدالَ ولا أذى ، ولا رَدَّ للتهديد والوعيد ، سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار فى الضلال وتولِّى الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى ، وقد عودنى ربى أن يكرمنى فيجيب دعائى ، وإذا كان وجودى إلى جوارك ودعوتى لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك ، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة ، وأدعو ربى وحده راجيًا ـ بسبب دعائى لله ـ ألاَّ يجعلنى شقيًّا . فكل ما يرجوه إبراهيم ويتطلع إليه هو تجنيب عمه الشقاوة ، وذلك من الأدب والحرج الذى يستشعره .

وهكذا اعتزل إبراهيم عمه وقومه وعبادتهم وآلهتهم ، وهجر أهله وديارَه ، فلم يتركه الله وحيدًا ، بل وَهَبَ له ذرية وعوضه خيرًا :

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾(١).

صلوات الله وسلامه على إبراهيم الصديق النبى الرّضِىِّ ، الحليم فى بره وعطفه على

(١) سورة مريم ـ الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

عمه الكافر المشرك . وقد أثبت الحق سبحانه لنا أن الكفر يمكن أن يوجد فى العمومة ، وكان أبو لهب عمًّا لرسول الله ﷺ ، ولذلك حين سأله كافر مشرك : أين أبى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أبى وأبوك فى النار » يقصد عمه أبا لهب ، ولا يقصد أباه ، لأن الله تعالى يقول :

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾(١)

فما دام العذاب قد ارتبط ببعث الرسول ، فإن أهل الفترة السابقة على الرسول ، والذين لم يصل إليهم البلاغ عن الله ، هم الناجون من العذاب . ويقول سبحانه وتعالى أيضًا :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

ويؤكد ذلك أن سلسلة نَسَب رسول الله من آدم عليه السلام إلى أن بعثه الحق نبيًّا لم يكن فى هذه السلسلة كافر أو مشرك ، فلا يقولن قائل : إنَّ آزر هو والد إبراهيم عليه السلام ، إنما هو عمه . إن سلسلة نسب رسول الله ﷺ لم يدخلها كُفْر أو شِرْك بالله ، فقال رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف بمعناه : « خَلَقَ الله الخَلْقَ ، واختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مُضَر ، واختار من مضر قريشًا ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خِيارٌ من خيارٍ من خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحَبَّهُمْ ، ومن أبغضَ العرب فَبِبُغْضى أبغضهم» .

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ١٥ .

(٢) سورة البقرة ـ الآية ١٣٤ .

(أ) حقيقة موقف إبراهيم فى استغفاره لأبيه وهو مشرك :

وقد يتساءل البعض : كيف يستغفر إبراهيم عليه السلام لعمه وهو مشرك ، والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (١)

كان بعض المسلمين يجد فى استغفار إبراهيم لعمه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ، ومشاعرهم الموصولة بذوى قرباهم من المشركين ، فجاء القرآن الكريم ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم عليه السلام ، فقوله تعالى فى سورة مريم :

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ (٢).

يعنى أن سيدنا إبراهيم سيدعو الله أن يغفر لعمه فلا يعاقبه بالاستمرار فى الضلال وتولى الشيطان ، بل يرحمه فيرزقه الهدى وقد عَوَّدَه الله تعالى أن يكرمه فيجيب دعاءه .

وقال تعالى فى سورة الممتحنة :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٣).

وقول إبراهيم لعمه ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ قال إبراهيم قبل أن يستيقن من إصرار عمه على الشرك ، قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه ، ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء ـ من الآية ٤٨ ، والآية ١١٦ .

(٢) سورة مريم الآية ٤٧ .

(٣) الآية الرابعة من سورة الممتحنة .

(٤) سورة التوبة ، من الآية ١١٤ .

كما جاء فى سورة التوبة [1]، ويوضح لنا القرآن الكريم هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال : ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] ذلك هو حقيقة موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى استغفاره لعمه وهو مشرك .

(ب) للابن المسلم أن يوصى بشىء للأبوين الكافرين :

إن الحق سبحانه وتعالى يعرف عن عباده أنهم يلتفتون إلى أبنائهم ، وقد يهملون الوالدين ؛ لذلك أوصى الله عباده المؤمنين أن يقرروا نصيبًا من الخير للآباء والأمهات ، وأيضًا الأقارب ، وقد جاء هذا الحكم قبل تشريع الميراث ، حيث كان الناس يعطون كل ما يملكون لأولادهم ويحرمون الوالدين والأقربين . وقد حدد الله بعد ذلك نصيب الوالدين فى الميراث ، أما الأقربون فقد ترك الحق سبحانه وتعالى تقرير أمرهم فى الوصية ، ولكن إذا كان الوالدان من الكفار فلا يرثون الابن ، ولكن على حسب قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ . لذلك فيستطيع الإنسان المؤمن أن يوصى بشىء من الخير فى وصيته للأبوين ، حتى ولو كانا من الكافرين ، وحدود الوصية هى ثلث ما يملكه الإنسان ، والباقى للميراث الشرعى ، فالحديث الشريف : « لا وصية لوارث » .

٢ـ صورة للوالدين المؤمنين مع الابن الكافر :

وعلى الجانب الآخر يصور لنا القرآن الكريم خوالج نفس الأبوة المستقيمة المتوجهة إلى الله مع الابن المنحرف الفاسق الضال فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن

---

(١) سورة الممتحنة ، من الآية : ٤ .

قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(١).

فالوالدان مؤمنان والولد عاق ، يجحد برهما أول ما يجحد ، فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح ﴿ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ ثم يجحد الآخرة ويكفر بها ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما ، ويرتعش جسمهما لهذا التهجم والتطاول ، ويهتفان به ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ويسيطر على قولهما الفزع من هول ما يسمعان ، في حين يصر هو على كفره ، ويلج فى جحوده ، ﴿ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(٢)

لقد حق على هذا الابن الكافر الجاحد وأمثاله العقاب والعذاب الذى يناله الجاحدون المكذبون وهو كثير ، ولقد خسروا كثيرًا وكثيرًا ، وخسروا الإيمان واليقين فى الدنيا ، ثم خسروا الرضوان والنعيم فى الآخرة .

رابعًا : بر الوالدين مقدم على الجهاد :

عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أوجب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(٣).

قَدَّمَ الرسول ﷺ بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله ؛ لتوقف الجهاد على بر

---

(١) سورة الأحقاف ـ الآية ١٧ .

(٢) الآية ١٨ من سورة الأحقاف ـ وانظر فى ظلال القرآن لسيد قطب .

(٣) رواه الشيخان ـ الأدب للإمام البخارى .

الوالدين ، إذ من البر استئذان الوالدين فى الجهاد ؛ لثبوت النهى عن الجهاد إلا بإذنهما[١].

وروى مسلم قوله : أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله ، قال الرسول : « فهل من والديك أحد حى ؟ » قال : نعم ، بل كلاهما حى . قال الرسول : « أفتبتغى الأجر من الله » ؟ قال : نعم . قال الرسول : « فارجع إلى والديك فَأَحْسِنْ صحبتهما » [٢].

كما قَدَّمَ الرسول ﷺ برَّ الوالدين على الهجرة ، وهى جهاد فى سبيل الله ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، جئت أُبَايعك على الهجرة وتركتُ أبوىَّ يبكيان ، فقال الرسول ﷺ : « ارجع إليهما فَأَضْحِكْهُمَا كما أَبْكَيْتَهُمَا » [٣].

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله الإذن فى الجهاد ، فسأله الرسول ﷺ : « أَحَىٌّ والداك ؟ » قال : نعم : قال الرسول : «ففيهما فجاهد » [٤].

أى : فابلغ جهدك فى برهما والإحسان إليهما ، فإن ذلك يقوم مقام جهاد العدو [٥].

وقال الإمام القرطبى : من الإحسان إليهما والبر بهما ـ إذا لم يتعين الجهاد ـ ألاَّ يُجاهد إلا بإذنهما . واختلفوا فى الوالدين المشركين ، هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية ، قال النووى : لا يغزو إلا بإذنهما ، وقال الشافعى : له أن يغزو بغير إذنهما[٦].

وقال الإمام أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن :

---

(١) فتح البارى ـ ج ١٠ .
(٢) الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .
(٣) رواه أبو داود ـ الترغيب والترهيب ج ٤ .
(٤) رواه الشيخان ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .
(٥) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ ج ١٠ .
(٦) تفسير القرطبى ـ ج ١٠ .

قال أصحابنا : لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الوالدين إذا قام بإزاء العدو مَنْ قد كفاه الخروج . قالوا : فإن لم يكن بإزاء العدو مَنْ قام بفرض الخروج ، فعليه الخروج بغير إذن والديه ؛ لأن الجهاد حينئذ فرضُ عينٍ على كل قادر ، وليس فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

وقالوا فى الخروج للتجارة ونحوها : لا بأس بغير إذنهما ؛ لأن النبى ﷺ إنما منعه من الجهاد إلاَّ بإذن الأبوين ـ إذا قام بالفرض غيره ـ لما فيه من التعرض للقتل وفجيعة الأبوين ، أما التجارات والتصرفات فهى من المباحات التى ليس فيها تعرض للقتل ، فلم يحتج إلى استئذانهما .

وقال أصحابنا : لا ينبغى للرجل أن يقتل أباه الكافر إذا كان مُحاربًا للمسلمين ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾ فأَمَرَ بمصاحبتهما بالمعروف فى الحال التى يُجاهدانه فيها على الكفر ، وقد نهى النبى ﷺ حنظلة بن أبى عامر الراهب عن قتل أبيه ، وكان مشركًا (١).

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن أصحاب الأعراف مَنْ هم ؟ وما الأعراف ؟ فقال : « أما الأعراف فهو جبل بين الجنة والنار ، وإنما سُمِّىَ بالأعراف لأنه مشرفٌ على الجنة والنار ، وعليه أشجار وثمار وأنهار وعيون ، وأما أصحاب الأعراف فهم الرجال الذين يكونون عليه ، وهم رجال خرجوا إلى الجهاد بغير رضا آبائهم وأمهاتهم ، فَقُتِلُوا فى الجهاد ، فمنعهم القتل فى سبيل الله عن دخول النار ، ومنعم عقوق الوالدين عن دخول الجنة ، فهم على الأعراف حتى يقضى الله فيهم أمره » (٢).

وعن أبى أُمامة رضى الله عنه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟ فقال النبى ﷺ : « هما جنتك ونارك » (٣).

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما بر أباه مَنْ سَدَّدَ إليه الطرف بالغضب » (٤).

---

(١) أحكام القرآن لأبى بكر الجصاص ـ ج ٤ .

(٢) رواه سعيد بن منصور ، وابن مردويه ، وابن جرير الطبرى .

(٣) رواه ابن ماجه ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٤) مجمع الزوائد ـ ج ٨ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : أتى رسول الله ﷺ رجلٌ ومعه شيخ فقال له : يا هذا ، مَنْ هذا الذى معك ؟ قال أبى ، قال : فلا تَمْشِ أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تَدْعُهُ باسمه ، ولا تستسب له » (١).

وعن مُعاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات ، قال : لا تُشرك بالله شيئًا وإنْ قُتلْتَ وَحُرقت ، ولا تعصِ والديك وأن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك » (٢).

خامساً: التأكيد على بر الوالدين عند الكبر :

البر الأدبى للوالدين :

تأمرنا آيات الله البينات ، ويأمرنا رسولنا الكريم ﷺ ببر الوالدين فى كل الأمور بصفة عامة ، مع التأكيد على برهما عند الكبر بصفة خاصة ، سواء البر الأدبى أو البر المادى .

قال تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (٣).

ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره لهذه الآيات البينات : « خص حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى بر الأولاد ؛ لتغير حالهما بالضعف والكبر ، فألزم فى هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ؛ لأنهما فى هذه الحالة قد صارا كَلاًّ عليه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رواه أحمد .

(٣) سورة الإسراء ـ الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(الولد) فيحتاجان أن يلى منهما فى الكبر ما كان يحتاج فى صغره أن يليا منه ، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر » .

وأيضًا فطُولُ المكث للمرء قد يوجب الاستثقال له ، ويحصل الملل ، ويكثر الضجر، فيظهر الولد غضبه على أبويه ، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر ، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم من كل عيب»(١).

ويقول الإمام القرطبى أيضًا : بر الوالدين موافقتهما على أغراضهما ، وعلى هذا إذا أمر أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ، إذا لم يكنْ ذلك الأمر معصية .

وفى الآيات نواه وأوامر :

أما ما فيها من النواهى ففى قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ قال القرطبى : لا تقل ما يكون فيه أدنى تبرم . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حالة الشيخ : البول والغائط الذى رأياه منك فى حالة الصغر فلا تقذرهما وتَقُلْ : أف . والآية أعم من هذا ، فالأف يقال لكل ما يضجر ويستثقل» .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ . قال القرطبى : النَّهْرُ : الزَّجْرُ والغِلْظَة ، وقال أبو السعود : أى لا تزجرهما عمَّا لا يعجبك بإغلاظ النهى .

وأما ما فيها من الأوامر ففى قوله تعالى :

﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ . قال القرطبى : « قولاً لينًا لطيفًا ، مثل : يا أبتاه ، ويا أماه »(٢).

وقال أبو السعود : هو كل قول جميل يقتضيه حُسن الأدب ، ويستدعيه النزول على المروءة(٣).

---

(١) تفسير القرطبى ـ ج ١٠ .
(٢) تفسير القرطبى ـ ج ١٠ .
(٣) تفسير أبى السعود .

وقوله تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ قال القرطبى : الذل : هو اللين . فينبغى بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه فى خير ذلة فى أقواله وسكناته ونظراته ، ولا يحد إليهما بصره . وروى عمر بن عثمان ، عن واصل بن السائب فى هذه الآية : لا تنفض يدك عليهما . قال عروة بن الزبير : ما بَرَّ والديه مَنْ أَحَدَّ النظرَ إليهما ـ والمراد المبالغة فى التذلل والتواضع لهما [1].

من الرحمة : قال القرطبى : أى أن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة فى النفس ، لا بأن يكون ذلك استعمالاً [2].

وعن عروة عن أبيه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ "لا تمتنع عن شىء أحباه" [3].

وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ قال القرطبى : خص التربية بالذكر ؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما فى التربية ، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما ، وحنانًا عليهما .

وجاء فى تفسير أبى السعود حول هذه الآيات : إمَّا يبلغن عندك الكبر : معنى عندك : أى فى كَنَفِكَ وكفالتك . أف : صوت ينبىء عن تضجر ، أو اسم فعل بمعنى : أتضجر . ولا تنهرهما : لا تزجرهما عمَّا لا يعجبك بإغلاظ النهى . قولا كريمًا : هو القول الجميل الذى يقتضيه حُسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة [4].

وفى قوله تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ـ ج ٣ .

(٢) تفسير القرطبى ـ ج ١٠ .

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره ـ الأدب المفرد ـ ص ١٧ .

(٤) تفسير أبى السعود ـ ج ٣ ص ٢١١ .

قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾[1].

وجاء فى كتاب « فى ظلال القرآن الكريم لسيد قطب قوله : « بهذه العبارات الندية والصور الموحية يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة فى قلوب الأبناء ، ذلك أن الحياة ـ وهى مندفعة ـ توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام ، إلى الذرية ، إلى الجيل المقبل ، وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء ، إلى الأُبُـوَّة ، إلى الجيل الذاهب ، ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة ؛ لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأُمَّهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد ، إلى التضحية بكل شىء ، حتى بالذات ، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخُ كل غذاء فى البيضة فإذا هى قشر ، يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية ، وهما مع ذلك سعيدان ، أما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ويندفعون بدورهم إلى الأمام ، إلى الزوجات والذرية ، وهكذا تندفع الحياة ، ومن ثَمَّ لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء ، إنما يحتاج الأبناء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف ، ومن هنا يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد بعد الأمر المؤكد بعبادة الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ : والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ، وكلمة (عندك) تصور معنى الالتجاء والاحتماء فى حالة الكبر والضعف ، ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ، وهى أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألاَّ يندَّ من الولد ما يدل على الضجر والضيق ، ومـا يَشِى بالإهانة وسـوء الأدب . ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ : بأن يكون كلامه

(١) سورة الإسراء الآيات من ٢٣ ـ ٢٥ .

لهما يشى بالإكرام والاحترام .﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ فهى الرحمة ، ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذى لا يرفع عينًا ، ولا يرفض أمرًا ، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانًا بالسلام والاستسلام . ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ : فهى الذكرى الحانية ، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان ، وهما اليوم فى مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان ، وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما ، فرحمة الله أوسع ، ورعاية الله أشمل ، وجناب الله أرحب ، وهو سبحانه أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مِمَّا لا يقدر على جزائه الأبناء .

قال الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه : « إن رجلاً كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل النبى ﷺ : هل أديتُ حقها ؟ قال ﷺ : لا . . . ولا بزفرة واحدة » .

وعليه فإن ما يجب على الأبناء قِبَلَ الوالدين من معاملة لا تقوم على الرعاية وحدها . فى شئون الإنفاق والتكفل بالحياة المعيشية المادية ، وإنما بالإحسان إليهما ، الذى يتمثل فى منع الإيذاء النفسى من قريب أو بعيد ، وبالعطف المصحوب بدماثة الخُلُق ، ولين الجانب فى المعاملة .

وبالإضافة إلى ذلك رعاية الجانب الإنسانى فى القول والسلوك ونحوهما ، بحيث يشعران بمتعة الراحة النفسية فى كفالة أبنائهما ، وبأنهما الآن يقتطفان ثمار جهدهما فيما مضى فى تربية أبنائهما وحضانتهم ، وبالدعاء مع ذلك إلى الله أن يجزيهما أحسن الجزاء لقاءَ ما قاما به فى تربيتهم فى صغرهم ، وأوقات ضعفهم ونشأتهم .

وإذ يقول تعالى فى الآية التالية :

﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ ﴾ فيخبر برقابة الله تعالى جل شأنه ، وباطلاعه على ما تضمره نفوس الأبناء وتخفيه قِبَل الوالدين .

وقال القاضى عياض : « وأجمعوا على أن حق الأب والأم آكَدُ فى البر مِمَّا سواهما [1].

---

(١) النووى على مسلم ـ ج ١٦ ص ١٠٢ ـ وانظر فى ظلال القرآن لسيد قطب .

البر المادى للوالدين :

قال الله تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (١).

جاء فى تفسير المنار : « أن جماع الإحسان المأمور به أن يقوم بخدمتهما ، وأن يسعى فى تحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر سعته ، واعلم أن مَنْ أدَّى النفقة التى يحتاجان إليهما وهو يُظهر الفَاقَة والقِلَّة فإنه لا يُعَدُّ مُحسنًا » (٢).

وعن عبدالله المحاربى ـ رضى الله عنه ـ قال : دخلنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول : « يأيها الناس ، يدُ المعطى العليا ، وابدأ بمن تعول : أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك » (٣).

عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ـ رضى الله عنهم ـ عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم ، فكلوه هنيئًا مريئا»(٤).

وقال الإمام ابن حزم : يُجبر كل أحد على النفقة على مَنْ لا مالَ له ، ولا عملَ بيده مما يقوم منه على نفسه : من أبويه ، وأجداده ، وجداته . . الخ .

ثم قال : فمن قدر من هؤلاء على معاش وتكسب وإنْ خَسَّ فلا نفقة له ، إلا الأبوين والأجداد ، والجدات والزوجات ، فإنه يُكَلَّفُ أن يصونهم عن خسيس الكسب إن قدر على ذلك ، ويباع عليه من ذلك فى كل ما ذكرنا مابه عنه غنى ، من عقاره وعروضه وحيوانه . . .

ثم قال : وقالت طائفة : لا ينفق أحد إلا على الوالد الأدنى ، والأم التى ولدته من بطنها ، فإن هذين ـ يعنى الأبوين ـ يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا

---

(١) سورة النساء ـ من الآية ٣٦ ، والإسراء من الآية ٢٣ .

(٢) تفسير المنار ـ ج ٥ .

(٣) رواه النسائى ـ انظر المحلى لابن حزم ـ ج ١٠ . وزاد المعاد ـ ج ٤ .

(٤) رواه أبو داود .

كانا فقيرين . . . ثم قال : فإذا اختلفت أديانهم : لم يلزم أحدًا منهم نفقة على مَنْ دِينه خلاف دينه ، إلا الولد على أبويه المخالفين له فى دينه »[1].

وقال الإمام ابن القيم : « ليس مِنْ بر الوالدين أن يدع أباه يكنس « الكنيف » ويكارى على الحمير ، ويوقد أتون الحمام ، ويحمل للناس على رأسه ما يتقوت بأجرته ، وهو فى غاية الغنى واليسار وسعة ذات اليد . وليس مِنْ بِرِّ أمه أن يدعها تخدم الناس وتغسل ثيابهم ، وتسقى لهم الماء ، ولا يصونها بما ينفقه عليها »[2].

أنت ومالك لأبيك :

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبى يريد أن يأخذ مالى . فقال له النبى : اذْهَبْ فَأْتِ بأبيك . فنزل جبريل على النبى ﷺ فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك : إذا جاء الشيخ فَسَلْهُ عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته أذناه . فلما جاء الشيخ قال له النبى : أخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته أذناك . فقال الشيخ : والله يا رسول الله لا يزال الله يزيدنا بِكَ يقينًا . . لقد قلتُ شيئًا فى نفسى ما سمعته أذناى . فقال الرسول : قُل وأنا أسمع . فقال الشيخ :

غَذَوْتُكَ مولودًا وعُلْتُكَ يافِعاً ... تَعُل بما أَجْنِى إليكَ وتنهلُ
إذا ليلة ضامَتْكَ بالسّقْم لم أَبِتْ ... لسُقْمِكَ إلاَّ ساهراً أتململُ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طُرِقْتَ به دونى فعينى تهملُ
تخاف الرَّدَى نفسِى عليكَ وإنها ... لتعلم أن الموت وقتٌ مُؤجَّلُ
فلما بلغت السنَّ والغاية التى ... إليها مدى ماكنت فيك أُؤَمِّلُ
جعلتَ جزائى غِلْظَةً وفَظاظَةً ... كأنك أنتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ
فليتك إذْ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِى ... فَعَلْتَ كما الجار المُجَاوِر يَفْعَلُ
فَأَوْلَيْتَنِى حَقَّ الجِوَارِ فلم تَكُنْ ... علىَّ بمالٍ دُونَ مَالِك تَبْخَلُ

---

(١) المحلى لابن حزم - ج ١٠ ص ١٠٠ - المسألة ١٠٣٣ .
(٢) زاد المعاد - ج ٤ ، ص ١٦٧ .

ولما انتهى الشيخ مما قاله نَهَرَ النبى ﷺ ابْنَ الشيخ ، وقال له : « أنت ومالُك لأبيك» . وجاء فى بعض الروايات أن هذه الأبيات هى مطلع قصيدة قالها أمية بن أبى الصلت فى حق ولده العاق .

وأجمع الفقهاء على أن نفقة الأبوين واجبة ، ولو كان الابن معسرًا لا يكسب إلا ما يكفيه ويكفى أولاده إنْ كان له أولاد ، ويجب عليه أن يضمهما إلى مائدته ، وطعام الواحد يكفى الاثنين .

وفى الحديث الشريف الذى رواه البخارى عن عبد الرحمٰن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، أن أصحاب الصُّفَّةِ كانوا أناسًا فقراء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كان عنده طعامُ اثنين فليذهبْ بثالثٍ ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » .

وكما قال عمر بن الخطاب : « لو أصابَ الناس السَّنةُ ـ أى المجاعة ـ لَأَدْخَلْتُ على أهل كل بيتٍ مثلهم ، فإن الناسَ لا يهلكون على أنصاف بطونهم » .

سادسًا : بر الوالدين لا ينقطع بموتهما :

عن أبى أسيد الله بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى مِنْ بِرِّ أبوىَّ شَىءٌ أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما»(١) .

ومعنى الصلاة عليهما الدعاء لهما وطلب ما ينفعهما فى الآخرة ، والاستغفار لهما : طلب المغفرة من الله لذنوبهما ـ إنفاذ عهدهما : تنفيذ وصيتهما ، وإكرام صديقهما : صلة أصدقاء الأب والأم .

وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ أَبَرَّ البِرِّ أن يصل الرجل أَهْلَ ود أبيه »(٢) .

---

(١) رواه أبو داود ـ الأدب المفرد .

(٢) رواه مسلم ـ الأدب المفرد .

ومعنى أَبَر البر : أكمله وأعظمه . وأهل ود أبيه : أصدقاء أبيه ومحبوه .

وفى الحديث الشريف : « إنَّ الوُدَّ يُتَوَارَثُ » (١).

لقد كان كلام رسول الله ﷺ يخرج إلى مجال التطبيق والتنفيذ والسلوك والعمل . لقد كانوا يتاجرون مع الله ، وكان رأس مالهم العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى .

ولننظر إلى هذا الموقف المهيب فى بر الوالدين بعد موتهما :

عن عبدالله بن دينار ، عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبدالله بن عمر ، وحَمَلَهُ على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه قال ابن دينار : فقلنا لابن عمر : أَصْلَحَكَ الله ، إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير .

فقال عبدالله بن عمر : إن أب هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إن أبر البر صِلَةُ الولد أهل ود أبيه » (٢).

وعن أبى بردة قال : قَدِمْتُ المدينة : فأتانى عبدالله بن عمر ، وقال : أتدرى لِمَ أتيتك ؟ قال : قلت : لا . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أحَبَّ أنْ يَصِلَ أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده ـ وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود ، فأحببت أن أصل ذاك » (٣).

ومن المستحب للأموات قراءة القرآن فى البيوت بعيدًا عن المقابر ، مع عدم إهمال الدعاء والاستغفار وفاءً بحقهما وقيامًا بحق برهما : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (٤).

قال الإمام القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ : خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما فى التربية ، فيزيده ذلك

---

(١) رواه الحاكم أو البيهقى .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٤) سورة الإسراء ـ من الآية ٢٤ .

إشفاقًا لهما ، وحنانًا عليهما . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ، فإن كان والدا المسلم ذِمِّيَّيْنِ استعمل معهما ما أمره الله به ها هنا ، إلاَّ الترحم لهما بعد موتهما على الكفر [١].

وأخرج ابن ماجه فى سننه فى باب الوالدين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : « إن الرجل لتُرفع درجته فى الجنة فيقول : أنَّى هذا ؟ فيقال : باستغفار وَلَدِكَ لك » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، إنَّ أمى توفيت ولم توص ، أفينفعها أن أتصدق عليها ؟ قال ـ نعم » [٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، إن أبى مات ، أفينفعه أن أتصدق عليه ؟ قال : « نعم » [٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « إذا ماتَ العبدُ انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنْتَفَعُ به ، أو ولد صالح يدعو له » [٤].

وقال الإمام الشوكانى فى نيل الأوطار : وقد اخْتُلِفَ فى غير الصدقة من أعمال البر ، هل يصل إلى الميت ثوابه ؟ فذهب المعتزلة إلى أنه لا يصل إليه شىء .

وذهب أهل السنة إلى أنه يصل إليه وينفعه . وقال فى شرح الكنز :

إن للإنسان أن يجعل ثوابَ عمله لغيره ، صلاةً كان ، أو صومًا ، أو حجًّا ، أو صدقه ، أو قراءة قرآن ، أو غير ذلك من جميع أنواع البر ، ويصل ذلك إلى الميت وينفعه بإذن الله .

وهناك خلاف حول وصول ثواب قراءة القرآن للميت .

---

(١) تفسير القرطبى ـ ج ١٠ .

(٢) رواه أبو داود ـ الأدب المفرد .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ـ نيل الأوطار ـ ج ٤ .

(٤) رواه مسلم ، وأبو داود ـ الأدب المفرد .

قال : والمختار الوصول . إذا سألَ الله إيصال ثواب قراءته ، وينبغى أن يجزم به ، لأنه دعاء ، فإن جاز الدعاء للميت بما ليس للداعى فإنه يجوز بما هو أولى ، ويبقى الأمر موقوفًا على استجابة الدعاء . وهذا المعنى لا يختص بالقراءة فقط ، بل يجرى فى سائر الاعمال (١).

وهناك رأى لفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى عام جمهورية مصر الأسبق، يقول فضيلته عن وصول ثواب قراءة القرآن للميت :

لتلاوة القرآن أجر عظيم من الله تعالى ، وقد جاء فى الحديث الشريف : أن لكل حرف يقرؤه المسلم من القرآن عشر حسنات ، وإذا طلب القارىء أن يجعل الله ثوابَ قراءته للميت استجاب الله دعاءه إن شاء الله ، كما يوصل ثواب الدعاء والاستغفار والصدقات وأفعال القرب والطاعات ، وذلك فضل من الله عظيم ، ورحمة للمؤمنين ، وقد جاء فى الحديث الشريف « أقرءوا يس على موتاكم » . أى لأجل انتفاعهم بثواب قراءتها ، وليس ذلك مستبعدًا ؛ لأن الذى قدر الثواب على الأعمال هو الله تعالى وحده، والذى يوصله لمن فعلها هو الله عز وجل ، والذى يضاعف الثواب هو الله تعالى ، فله وحده عز وجل أن يجعل للقارىء ثوابًا عُلى قراءته للقرآن ، ويجعل للميت ثواب القراءة إذا وهبها القارىء له . ولولا أن الميت قد أهَّلَ نفسه لهذه المنحة فى حياته لما يسر الله له من يهديه هذا الثواب بعد مماته لينتفع به كما ينتفع بما عمله بنفسه فى حياته . وفى الحديث الشريف : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » وكلها امتداد لعمله فى حياته ، والله تعالى على كل شىء قدير ، وبالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ، وهو سميع مجيب ، ينفع قارىء القرآن والمقروء له بالثواب العظيم كرمًا منه ورحمة ، والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ (٢).

لذلك فيجوز أن يقرأ الإنسان شيئًا من القرآن ويهدى ثواب ما قرأه إلى روح الميت ،

---

(١) نيل الأوطار - ج ٤ .

(٢) سورة (يس) - من الآية ١٢ .

إحسانًا منه للميت ، ورغبة فى وصول الثواب إلى روحه . فقد ورد عن النسائى : « من دخل مقبرة وقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إحدى عشرة مرة وأهدى ثوابها لهم كتب الله له من الحسنات بعدد من دُفِنَ فيها » .

ولكن لا يجوز قراءة القرآن على الميت ولا التسبيح له بأجر . وقال فى شرح الهداية : « إن القراءة بالأجرة لا تستحق الثواب لا للميت ولا للقارىء » وقال الحنفية : لا يصح الاستئجار على القراءة وإهداؤها إلى الميت ؛ لأنه لم يُنْقَلْ عن أحدٍ من الأئمة إذْن فى ذلك ، فيحرم على القارىء أن يأخذ الأجر ، كما يحرم على أهل الميت أن يدفعوا الأجر فى مقابلة ثواب القراءة أو التسبيح ، لذلك فإنه لا يصح الاستئجار على قراءة القرآن على المقابر أو المآتم ، فلا ضرورة تدعو إليه » .

والمنقول عن الإمام مالك : أن ثواب القراءة على الميت والتسبيح والتهليل لا يصل لروح الميت ، وأنَّ الإجارة عليها لا تصح .

والمنقول عن مذهب الحنفية : منع الإجارة على فعل القرب والطاعات ، كالصلاة ، والصوم ، وقراءة القرآن ؛ لأن كل طاعة يختص بها المسلم لا يصح الاستئجار عليها ، ولأن كل قربة تقع من المسلم إنما تقع عنه لا عن غيره .

أما بالنسبة للحج عن الغير فقد أجمعوا على أن الحج عن الغير هو من باب الإنابة لا من باب الإجارة ، فمن حج عن أحد فهو نائب عنه لا أجير . وقال الحطاب : « كل عبادة كان الحامِلُ عليها أمرًا دنيويًّا لا ثوابَ فيها للفاعل » .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« إنه لو أَوْصَى بمالٍ فى ختمات ، فإن المال يُصرف على الفقراء والمساكين ، فهؤلاء الذين يبيعون الختمات على الناس بحيث يشتريها من يهدى ثوابها لموتاهم فإنه ليس لهم ثواب وأجر فى قراءتهم حتى يشترى هذا الثواب منهم ، وإنما يتحايلون على الناس بأكل أموالهم ، وأكثر من يفعل ذلك هم السُّذَّجُ الذين ليس لهم حظ من العلم والمعرفة والعقيدة الصالحة .

وقد أخبر النبى ﷺ « أن أُناسا يقرءون القرآن يقيمونه كما يقام القداح يتعجلونه ولا

يتأجلونه » .

يعنى يتعجلون أخذ الأجرة على التلاوة ولا يتأجلون أجره وثوابه »[1].

ومر عمران بن حصين على قارىء يقرأ القرآن ، فلما فرغ من قراءته أخذ يسأل الناس ، فاسترجع عمران ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« إن أناسًا يقرءون القرآن يسألون به الناس فاقْرَءُوا القرآن واسألوا به الله عز وجل » .

سابعًا : جزاء بر الوالدين فى الدنيا والآخرة :

إن بر الوالدين طاعةٌ لله تعالى الذى أَوْصَى بِبِرِّهِما ، ونهى عن عقوقهما فى عدة آيات من القرآن الكريم . وهى طاعة لرسول الله ﷺ ، ولها الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة .

من جزاء بر الوالدين فى الدنيا :

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم »[2].

فليعلم الأزواج والزوجات ، وليعلم الأولاد ، أن برهم لآبائهم وأمهاتهم يترك آثاره النفسية فى أولادهم ، فيكونون لهم بَارِّين ، وكما قيل : « اعْمَلْ ما شِئْتَ ، فَكَما تَدِينُ تُدَان » .

وإن بر الوالدين يزيد فى الرزق ، ويطيل العمر ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أن يُمَدَّ له فى عُمره ، ويُزَادَ له فى رزقه ، فَلْيبرَّ والديه ، وَلْيَصِل رَحِمَهُ »[3].

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ بَرَّ والديه طُوبَى له ، زاد الله فى عمره »[4].

---

(١) المراجع : فتاوى لفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى مصر الأسبق .
ـ مجموعة فتاوى لفضيلة الشيخ الطاهر الزاوى مفتى ليبيا .
ـ بحث لفضيله الدكتور يوسف القرضاوى ، مجلة الأمة القطرية ـ العدد الصادر فى ١٤ من رمضان ١٤٠١ هـ .

(٢) رواه الحاكم ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٣) رواه أحمد ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٤) رواه أبو يعلى ، والطبرانى ، والحاكم .

وعن ثَوْبَانَ رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرَّجُلَ لَيُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلاَّ الدعاءُ ، ولا يزيد فى العمر إلا البر »(١).

من جزاء بر الوالدين فى الآخرة :

إن بر الوالدين يُعَدُّ كفَّارة لكبائر الذنوب ، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال : أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال ، يا رسول الله ، إنى أذنبتُ ذنبًا عظيماً ، فهل لى مِنْ توبة ؟ قال : هل لك من أم ؟ قال : لا . قال : هل لك من خالة ؟ قال : نعم . قال : فبرها »(٢).

بر الوالدين طريقٌ إلى الجنة :

عن معاوية بن جاهمة رضى الله عنهما ، أن جاهمة قال : « أتيتُ النبىَّ ﷺ أستشيره فى الجهاد ، فقال : أَلَكَ والدان ؟ قلت : نعم ، قال : الْزَمْهُمَا ، فإنَّ الجنةَ تحت أرجلهما »(٣).

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « بر الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإنْ شِئْتَ فَأَضِعْ هذا الباب أو احْفَظْهُ »(٤).

وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « انْطَلَقَ ثلاثةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه ، فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تَدْعُوا الله بِصَالِحِ أعمالكم . فقال رجل منهم : « اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً (٥) فنأى بى طلبُ الشَّجَر يومًا ، فلم أَرُحْ عليهما حتى ناما ، فحلبتُ لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائِمَين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالا فلبثتُ والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا ،

---

(١) رواه ابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٢) رواه الترمذى ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٣) رواه النسائى ، وابن ماجه ، والحاكم ، والطبرانى ، واللفظ له .

(٤) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٥) لا أغبق قبلهما ، أى : لا أقدم عليهما فى شرب اللبن أهلاً ولا غيرهم .

فشربا غبوقهما ، اللهم إنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فَفَرِّجْ عنا ما نحن فيه من هذه الصخره . . . » الحديث [1].

وفى رواية البخارى : « . . فجئتُ بالحِلاَبِ ، فقمتُ عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصِّبْيَةِ قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر » [2].

أدلة من الآثار على بر الوالدين :

ذكر الإمام الطبرى فى التفسير ، قال : « كان رجل من بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه ، وإن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه ، فكان أبوه نائمًا تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفًا ؟ قال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه بثمانين ألفًا . فقال له الآخر : أيْقظْ أَباكَ وهو لك بستين ألفًا . فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفًا ، وزاد الآخر ـ على أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه ـ حتى بلغ مائة ألف ، فلما أكثر عليه قال : لا أشتريه منك بشىء أبدًا ، وأبَى أن يوقظ أباه .

القيام للقادم وتقبيل يد الوالدين والمصافحة :

القيام للقادم:

القيام للقادم كالضيف أو المسافر أو العالم الكبير أدب نبيل يجب أن يُؤْمَرَ الوَلَدُ به ويتخلق عليه ، والوالدان مُقَدَّمَانِ على الناس جميعًا فى ذلك ، فقد رَوَى البخارى ، وأبو داود ، والترمذى ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما رأيت أحدًا أشبه سَمْتًا ودلاًّ وهَدْيًا برسول الله ﷺ فى قيامها وقعودها مِنْ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ ، قالت : وكانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها فَقَبَّلَهَا وأجلسها فى مجلسه ، وكان النبى ﷺ إذا دَخَلَ عليها قامت من مجلسها وقَبَّلَتْهُ وأجلسته فى مجلسها » .

وَرَوى الشيخان أن سعدَ بن معاذ لما دنا إلى المسجد ، قال النبى ﷺ للأنصار :

---

(١) الحديث رواه الشيخان .

(٢) الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

«قوموا إلى سَيِّدِكُم ـ أو خيركم » واستدل من ذلك على جواز القيام لأهل العِلْمِ والفضل .

• وأمَّا ما ثبت أنه ﷺ نهى عن القيام فى قوله ﷺ : « لا تَقُوموا كما يقومُ الأعاجِم يُعَظِّمُ بعضُهم بعضًا »(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سَرَّهُ أنْ يمثلَ له عبادُ الله قيامًا فَلْيَتَبَوَّأْ بيتًا من النار »(٢). فهذا محمول على من قصد القيام لذاته .

تقبيل يد الوالدين :

ينبغى أن يعتاد الولد على أدب تقبيل يد الكبير ؛ لما له مِنْ أَثَر فى تعليم الولد التواضع والاحترام ، وخَفْض الجناح ، وإنزال الناس منازلهم ، فقد أخرج البخارى فى الأدب الصغير ، وأبو داود ، وابن العربى ، عن أم أبان ، أن جدها الوازع بن عمرو ، رضى الله عنهما ، كان فى وفد عبد القيس ، قال : لما قَدِمْنَا المدينةَ جعلنا نتبادر مِنْ رواحلنا فَنُقَبِّلُ يد النبى ﷺ ورجليه .

وأخرج الطبرانى عن يحيى بن الحارث الذمارى قال : لقيتُ واثِلَةَ بن الأسقع رضى الله عنه ، فقلت : بايَعَتْ يَدُكَ هذه رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم ، قلتُ : أَعْطِنِى يدك أَقَبِّلْهَا ، فأعطانيها ، فقبلتُها .

ويجب ألا يكون فى ذلك مغالاة أو زيادة عن الحد الذى أمر به الشرع الإسلامى ، كالركوع أثناء التقبيل أو الانحناء أثناءَ القيام .

وعليه فتقبيل الأيدى إذا كان الباعث عليه لا يمقته الشرع ، وذلك كالتجلة والاحترام لِتَقِىٍّ وَرِع ، أو عالم جليل ، كان حسنًا مقبولاً ، والوالدان مقدمان على الناس جميعًا فى استحسان تقبيل أيديهما ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد عن أبى مجلز .

(٣) سورة الإسراء ـ الآية ٢٤ .

المصافحة :

روى الترمذى عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رجل : يا رسول الله ، الرجلُ مِنَّا يَلْقَى أخاه أو صديقه فينحنى له ؟ قال : لا . قال : أفيلزمه ويقبله ؟ قال : لا . إلا أن يأتى من سفر . قال : فيأخذه بيده يصافحه ؟ قال : نعم »[1].

ومن طريف ما كتبه بعض الفقهاء أن التقبيل باعتبار موقعه على أنواع : « تقبيل المَوَدَّةِ للولد ، ويكون على الخَدِّ ، وتقبيل الرحمة للوالدين ، ويكون على الرأس ، وتقبيل الشفقة للأخ ، ويكون على الجبهة ، وتقبيل الشهوة للزوجة ويكون على الفم ، وتقبيل التحية للعلماء العاملين ويكون على اليد » .

إن عاطفة الوالدين نحو ابنهما أقوى من عاطفته هو نحوهما ، ومحاولة الوالدين إسعاد ولدهما أكثر وأعمق من محاولة الولد لإسعاد والديه ، وَحدبُهما على رعايته أوسع مَدًى مِنْ حَدْبِهِ هو على رعاية مصلحتهما ، تلك هى الفطرة ؛ لذلك لم يُوصِ القرآن الكريم الوالدين برعاية الابن والسعى لمصلحته وتوفير الحنان والعاطفة نحوه ، وإنما أوصَى الولد بذلك كله ؛ لذلك يجب على الابن أن يُحسن لوالديه وألاَّ يغفل عن رعايتهما والإحسان إليهما بقدر ما يستطيع ، وأن يبذل قُصَارَى جهده فى مباشرة الرعاية المُثْلَى لهما ، حتى يطيع الله فيما أوصى به فى قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾[2].

ولكن قد يحدث أحيانًا ـ وفى حالات نادرة أن تغلب على الوالدين الأنانية من أجل احتفاظهما بالابن وحدهما بعواطفه وبماله كله ، وبكل مجهود بشرى له فى الحياة ، وينعكس ذلك فى تحديهما لزوجته ؛ لأنها دخلت عليهما حياتهما وشاركتهما فى مجهود الابن ، ظانين أنها بهذه المشاركة تعتدى عليهما ، ويحاولان تنفير الابن من زوجته وحثه على إساءة معاملته لها ، وهى زوجة مطيعة وتتقى الله فى نفسها وتتقى الله فى زوجها ، وتتقى الله فى معاملتها لهما . ففى مثل هذه الحالات على الزوج أن يعلم أن طاعة الوالدين لا تلتزم فى كل شىء ، وقد نص القرآن الكريم على أن عدم طاعة الولد لأبويه

---

(١) حديث حسن ـ جمع الفوائد ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) سورة الأحقاف ، من الآية ١٥ .

أمرٌ واجبٌ عندما يطلبان منه أن يشرك بالله . والشرك ، وإن كان رأس المعاصى ، فإن ماعداه من انحرافات إذا كانت تتضمن الاعتداء على حقوق الآخرين فلا ينبغى من قِبَلِ الابن إذا أُمِرَ من والديه بارتكاب ما يخالف حق الله أو حق الناس أن يطيعهما . ففى وصية لقمان لابنه كما يقصها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾[1].

فى هذه الوصية ثلاثة أمور : أولاً : بألاَّ يتبع الابن الوالدين فيما يخالف رسالة الله ، وبالأخص فى الشرك بالله . ثانيًا : أنه مع الاختلاف بين الابن والوالدين (ومثله الاختلاف فى اتجاهات الحياة) يجب أن يقوم الابن بمباشرة الرعاية المثلى للوالدين والإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ثالثًا : لكى يكون الابن فى مأمن فى سلوكه فى اتجاهه فى الحياة يجب عليه ان يتبع فقط سبيل المؤمنين بالله وحده ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾.

فالزوجة عندما يقول الله تعالى فى شأن ما يجب أن يعاملها زوجها به : ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ لها حق المعاملة الكريمة على زوجها ، وليس من المعاملة الكريمة أن يسلك الزوج مسلكًا عمليًّا يؤذيها وتتضرر به تنفيذًا لانفعالات الوالدين قِبَلَهَا بدون ذنب جنته . وإنما من المعاملة الكريمة ما ينصح به الإسلام فيما يجب أن يُعامل به الزوج زوجته فى حُسْنِ خُلُقٍ ومَوَدَّةٍ ولُطْفٍ ، فيروى عن عائشة رضى الله عنها قولها عن رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا وخِيَارُكُم (أى المفضلون فيكم) خيارُكُم لنسائكم . (أى : المحسنون إليهم بالمعاشرة الطيبة » .

ويجب أن يعلم الوالدان أن رعاية الابن لهما ليس معناها التحفظ عليه والتحكم فى عواطفه ، وأن نماء شخصيته بعد أن يتزوج هو فى استقلاله عنهما ، وأن هدفه قد تحول إلى أسرته الجديدة ، وأنه يجب على الوالدين أن يباركا حياته المشتركة مع زوجته ، وأن

(١) سورة لقمان ـ من الآية : ١٥ .

يَدْعُوَا له بالخير فى أن يكون خَيْرَ خلفٍ لهما . ويجب على الابن ليكون فى مأمن مِن سلوكه فى اتجاهه فى الحياة أن يتبع سبيل المؤمنين بالله وحده :

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ (١).

ثامنًا : جزاء عقوق الوالدين :

معنى العقوق : قال الإمام ابن حجر رضى الله عنه : العقوق مشتق من العَقِّ وهو: القَطْع ، والمراد به صدور ما يتأذى به الوالدُ من ولده من قول أو فعل ، إلاَّ فى شركٍ أو معصية ، مالم يتعنت الولد ، وضبطه ابن عطية رحمه الله : « بوجوب طاعتهما فى المباحات فعلاً وتركًا واستحبابها فى المندوبات وفروض الكفاية » (٢).

قال الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ (٣).

(أ) عقوق الوالدين عصيان لله ورسوله :

عقوق الوالدين عصيان لله تعالى الذى أوصى بِبِرِّهما ، ونهى عن عقوقهما فى عدة آيات . وقد قال الله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٤).

---

(١) رأى الدين بين السائل والمجيب ، للدكتور محمد البهى .

(٢) فتح البارى ج ١٠ .

(٣) سورة الأحقاف ـ الآيتان : ١٧ , ١٨ .

(٤) سورة النساء ـ الآية ١٤ .

عقوق الوالدين عصيان لرسول الله الذى أوصانا ببر الوالدين ، وحَرَّمَ العقوق . فعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات ، قال : « لا تُشْرِكْ بالله شيئًا وإن قُتِلْتَ وحُرِقْتَ ، ولا تعْقُق والديك ، وإنْ أمَراكَ أن تخرج من أهلك ومالك . . » الحديث [١].

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى حرم عليكم : عقوقَ الْأُمَّـهَـاتِ ، وَوَأْدَ البنات ، ومنعًا وهاتِ . وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال . وإضاعة المال » [٢].

وقال رسول الله ﷺ : رضا الله فى رضا الوالدين ، وسخط الله فى سخط الوالدين »[٣].

(ب) عقوق الوالدين من أكبر الكبائر :

عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثًا) قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الشِّرْكُ بالله . وعقوق الوالدين . وكان متكئًا فجلس ، وقال : ألا وقولُ الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[٤].

وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أكبر الكبائر شَتْمَ الرجل والديه » قالوا يا رسول الله : وهل يشتمُ الرجلُ والديه ؟ قال : نعم . يسبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرجُلِ فيسبّ أباه ، ويسبُّ أمه فيسب أُمه » [٥].

(ج) من جزاء عقوق الوالدين فى الحياة الدنيا :

تعجيل العقوبة : عن أبى بكرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : كُلُّ الذنوب

---

(١) رواه أحمد وغيره ـ الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٠٨ .

(٢) رواه البخارى وغيره .

(٣) رواه الترمذى من حديث عبدالله بن عمرو .

(٤) رواه الشيخان ، والترمذى ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٥) رواه مسلم ـ تفسير القرطبى ـ ج ١٠ .

يُؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلاَّ عُقوق الوالدين ، فإنَّ الله تعالى يُعَجِّلُهُ لصاحِبه فى الحياة قبل الممات »[1].

لا يقبل الله منه فرضًا ولا نفلاً : عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثةٌ لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً[2]: عاقٌّ ، ومَنَّانٌ ، ومُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ »[3].

عليه لعنة الله : عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لغير الله . ولعن الله مَنْ غيَّرَ تُخوم الأرض . ولَعَنَ الله مَنْ سَبَّ والديه»[4].

وفى رواية : « لعن الله مَنْ سَبَّ أباه ـ لعن الله مَنْ سَبَّ أُمَّه » .

وسُئِلَ كعبُ الأحبار عن عقوق الوالدين : ما هو ؟ فقال : « هو إذا أقسم عليه أبوه وأمه لم يبر قسمهما ، وإذا أمَرا بأمرٍ لم يُطِعْ أمرهما ، وإذا سألاه شيئًا لم يعطهما ، وإذا ائتمناه خانهما » .

وقال كعب الأحبار رحمه الله : « إن الله لَيُعَجِّلُ هَلاَكَ العبد إذا كان عاقًّا لوالديه ليعجل له العذاب ، وإنَّ الله لَيَزِيدُ فى عُمر العبد إذا كان بارًّا بوالديه ليزيده بِرًّا وخيرًا» .

وعن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى أوحَى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : « يا موسى ، وقِّرْ والديك ، فإنَّ مَنْ وَقَّرَ والديه مددتُ فى عمره ، ووهبتُ له ولدًا يوقره . ومَنْ عَقَّ والديه قَصَّرْتُ فى عمره ، ووهبت له ولدًا يعقه » .

إن الذى يُعامِل والديه فى جفوة وغِلْظَة ، أو فى نكران للجميل ، يترقب أن يُعَامَل مثل هذه المعاملة من أبنائه فيما بعد ، وعندئذ يشقى بهم وبحياته أكثر مما شقى والداه به ؛ لأنه سيتذكر أنه قد أساء معاملة والديه وهو تُساء معاملته الآن ، فَجَمَعَ فى حياته سوءًا فوق سوء ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[5].

---

(١) رواه الحاكم ، والأصبهانى ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٢) صرفًا ولا عدلاً : نفلاً ولا فرضًا .

(٣) رواه ابن أبى حاتم ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٤) رواه ابن حبَّان فى صحيحه ـ الترغيب والترهيب ـ ج ١ .

(٥) سورة الشورى ـ من الآية ٤٠ .

دعوة الوالدين مستجابة : فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث دعوات مستجابة لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المُسَافِر،ودعوة الوالدين على ولدهما »(١).

(د) من جزاء عقوق الوالدين فى الآخرة :

لكل عاقٍّ لوالديه جزاء أليم : غضبٌ من الله ، وعذاب شديد ، وحرمان من الجنة ، فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاقّ لوالديه ، ومُدْ مِن الخمر ، والمَنَّان فى عطائه . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والدَّيُّوثُ ، والدَّجَلة »(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رغِمَ أَنْفُه ، ثم رغم أنفه » قيل : مَنْ يا رسول الله ؟ قال : من أدركَ والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة »(٣).

وروى الديلمى ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « لو علم الله شيئًا أَدْنَى مِنَ الْأُفِّ لَنَهى عنه ، فليعمل العاقُّ ما شاء الله أن يعمل ، فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء أن يعمل ، فلن يدخل النار » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعةٌ نفَرٍ حَق على الله ألاَّ يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مُدمن الخمرِ ، وآكِلُ الربا ، وآكِلُ مال اليتيم ظلمًا ، والعاق لوالديه ، إلاَّ أن يتوبوا »(٤) .

وعن عَمرو بن مُرَّةَ الجهنىّ ، قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت إذا صليتُ الصَّلَوات الخَمْسَ ، وصُمْتُ رمضان ، وأديتُ الزكاة ،

---

(١) رواه أبو داود ، والطبرانى ، والترمذى ، وابن ماجه .

(٢) الدَّيُّوث : الذى لا يغار على أهله ، والدَّجَلة : الكذَّاب ، والذى يلبس الباطل ثوب الحق ـ والحديث رواه النسائى والبزار ـ الترغيب والترهيب ـ ج ٤ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الحاكم .

وحججت البيت ، فماذا لى ؟ فقال رسول الله ﷺ : مَنْ فعل ذلك كان مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، إلاَّ أنْ يَعُقَّ والديه »[1].

وروى أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة : المُشرك ، والزانى ، والعاق لوالديه . قال ابن حجر الهيثمى رحمه الله : أيها المُضَيِّعُ لأوْكَدِ الحُقوق ، المعتاضُ عن البِرِّ بالعقوق ، الناسى لما يجب عليه ، الغافِلُ عمَّا بين يديه : برُّ الوالدين عليك دَيْنٌ ، وأنت تتعاطاه باتباع السنين تطلب الجنة بزعمك وهى تحت أقدام أمك ، حملتك فى بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج ، وكابدت عند وضعك ما يُذِيبُ المُهَج ، وأرضعتك من ثديها لبنًا ، وأطارت لأجلك من عينها وَسَنًا ، وغسلت بيمينها عنك الأذَى ، وآثَرتْكَ على نفسها بالغذاء ، وصَيَّرَتْ حجرها لك مهدًا ، وأنالتك إحسانًا ورفدًا ، فإن أصابك مرض أو شكاية أظهرت من الأسف فوق النهاية ، وأطالت الحزن والنحيب ، وبذلت مالها للطبيب ، ولو خُيِّرَتْ بين حياتك وموتها لآثرت حياتك بأعلى صوتها ، هذا وكم عاملتها بسوء الخُلق مرارًا ، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهارًا ، فلما احتاجت عند الكبر إليكَ جعلتها من أهون الأشياء عليك ، فشبعت وهى جائعة ، ورويت وهى ضائعة ، وقدمت عليها أهلك وأولادك فى الإحسان ، وقابلت أياديها عليك بالنسيان ، وصعب لديك أمرها وهو يسير ، وطال عليك عمرها وهو قصير ، وهجرتها،ومالك سواها نصير .

هذا ومولاك قد نهاك عن التأفيف ، وعاتبك فى حقها بعتاب لطيف . . سَتُعَاقَبُ فى دنياك بعقوق البنين ، وفى آخرتك بالبعد عن رب العالمين ، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2].

(هـ) دعاء الأم مستجاب :

قطع الصلاة بنداء أحد الأبوين :

قال الحنفيون وأحمد يحرم قطع الفرض بنداء أحد أبويه ، إلاَّ أن يستغيث به ؛ لأن

---

(١) رواه أحمد ، والطبرانى ، وابن خزيمة ، وابن حبَّان .

(٢) سورة الحج ـ الآية العاشرة ـ وانظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر ـ ج ٢ ص ٥٨ و ٥٩ .

قَطْعَه لا يجوز إلا لضَرورة ، ويجب قطع النافلة لإجابة أحد والديه الأعمى والأصم ، وإلاَّ خَفَّفَ الصلاة وسلم ، ثم أجاب ، كما لو كان فى فرض ، وإذا كان فى نافلة وعلم أحد أبويه أنه فى الصلاة وناداه لا يجيبه ؛ لأن قطعها لندائه له مع علمه أنه فى الصلاة معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله الخالق سبحانه وتعالى ، فلا تجوز إجابته ، أمّا إذا لم يعلم أنه فى الصلاة فإنه يجيبه وجوبًا ، كما فى قصة جريج الراهب ودعاء أمه عليه ، وما ناله من العناء لعدم إجابته لها .

جريج الراهب ودعاء أمه عليه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم عليه السلام ، وقال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (١) . ليوضح أن العبودية الحقة لله تعالى .

وبينما صبى يرضع من أمه إذْ مَرَّ رجل على دَابَّةٍ فارِهة وشَارَة حَسَنة ، فقالت المرأة : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فتركَ الثدى وأقبل ينظر إليه وقال : اللهم لا تجعلنى مثله . ثم أقبل على ثديه وجعل يرتضع .

ثم مرت الأم بطفلها بجارية ، فَوَجَدَ مَنْ يضربها ويقول لها : زَنَيْتِ وسَرَقْتِ . وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل . فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الطفل الرضاعة ونظر إليها . وقال : اللهم اجعلنى مثلها . وقال الطفل الرضيع للأم : إنَّ الرجل الذى كان يركب الدابة كان جبارًا ، فقلتُ اللهم لا تجعلنى مثله ، وهذه الجارية بريئة لم تَزْنِ ولم تسرق ، فقلت اللهم اجعلنى مثلها .

وصاحب جُرَيْج ، وكان جُرَيْجٌ رجلاً عابدًا من بنى إسرائيل ، فاتخذ صَوْمَعَةً فكان فيها ، فأتته أمه وهو يصلى فقالت : يا جُرَيْجُ ، فقال : اللهم أمى وصلاتى ! فأقبل على صلاته ، فقالت بعد ثالث يوم فى ثالث مرة اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر فى وجوه

---

(١) سورة مريم ـ الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

المُومِسَاتِ ، فَتذاكَر بنو اسرائيل جُرَيْجاً وعبادته ، وكانت امرأة بَغِيّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنها ، فقالت : إن شئتم لَأَفْتِنَنَّهُ . فتعرضَتْ له ، فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جريج ، فأتوه فأنزلوه من صومعته ، وهدموها ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم؟ قالو : زَنَيْتَ بهذِه البَغِيِّ فولدت منك . فقال أين الصبى ؟ فجاءوا به . فقال : دعونى حتى أصلى ، فَصَلَّى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال : يا غلام ، من أبوك؟ فقال : فلان الراعى . فأقبلوا على جريج يُقَبِّلُونَهُ ويتمسحون به ، وقَالُوا : نبنى صومعتك مِنْ ذَهبٍ . قال : لا ، أعيدوها مِنْ لَبِنٍ كما كانت . ففعلوا [1].

توضح هذه القصة من قصص السنة الشريفة حق الأمومة فى البر والطاعة والاستجابة لطلبها . وتحذر أشد التحذير من مخالفة الأم وعصيانها وعقوقها ، وأنَّ طاعتها واجبة ومقدمة على كل طاعة من النافلة ، فقد قال العلماء : هذا دليل على أنه كان الصواب فى حق إجابتها ؛ لأنه كان فى صلاة نفل ، والاستمرار فيها تطوعٌ لا واجبٌ ، وإجابة الأم وبرها واجب ، وعقوقها حرام ، وكان يمكنه أن يخفف الصلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته .

كما توضح هذه القصة أن دعاء الأم مستجابٌ ، فقد دعت أم جريج عليه أن يرى المومسات ، فعندما جاءت أمه تدعوه ليكلمها صادفته يصلى نفلاً ، فقال اللهم أمى وصلاتى ، فاختار صلاته .

وعندما جاءوا ليهدموا صومعته لاتهامه مع المرأة الكاذبة الباغية تبسَّم فى هذا الجو الخانق ، وعندما تبين لهم أنه طاهر نقى ، وأن ما حدث كان كذبًا وافتراءً ، سألوه عن سبب ضحكه ، فقال : ما ضحكت إلاَّ من دعوةٍ دعتها علىَّ أمى .

إنها قصة توضح أهمية البر بالوالدين ، وفضل طاعة الأم وعدم عقوقها ، وإجابة الله تعالى لدعائها ، وأن من يحفظ الله فى صدق وإيمان وقوة يقين يحفظه الله سبحانه وتعالى مِنَ الفتن ، فمن حفظ حدود الله ولم يقع فى معصية حفظه الله من كل فتنة أو سوء ،

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان .

وكان معه فى كل شدائده وأزماته ، فيفرج له همَّه ، ويكشف عنه غمه ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[1].

فالله الحاكم العادل الذى يعلم السر وأخفى لا يتخلى عن الإنسان المظلوم ، بل يكون معه بالتأييد وبالنصر ، والمساعدة بالفرج ، واليُسْر بعد الضيق والعُسر:

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[2].

(١) سورة الطلاق ـ الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الشرح ـ الآيتان ٥ ، ٦ .